اللغة العربية وأثر القرآن في تطورها

الأستاذ الفاروقي الكرمالي

عميد كلية اللغة العربية
(جامعة القرويين)

تقرر علماء اللغة والاجتماع قديما وحديثا – ان القصد من وجود اللغة هو التعبير عما يختلج في الضمير من المعاني والاغراض – وان اقرب طريق وايسر وسيلة الى ذلك هو الالفاظ والاصوات التي لا تكاد تتفاوت في الوصول الى هذه الغاية وان كانت تختلف في ايفائها حقها اختلافا كثيرا – وان الوضع اللغوي كان من لطف الله بعباده ليتسنى لهم التفاهم والتعاون لان الانسان لا يمكنه ان يستقل بحياته ولا ان يعيش بانفراده كما ان ذلك اوفق لغرض الدال اذا كان لا يريد اطلاع غير المخاطب على مدلولها ، حيث انها توجد عند الحاجة وتنقضي بانقضائها – وان معاني الحياة اكثر من ان يعبر عنها فلكل لفظ معنى وليس لكل معنى لفظ .

واللغة العربية من بين اخواتها اللغات السامية حباها الله عذوبة اللفظ وجمال الاسلوب وغزارة المادة وامدها بقوة الدفاع عن حياتها واستقلالها لما تتوفر عليه من عوامل التطور وعناصر البقاء ، وهي ككائن من الكائنات الحية ، وكمظهر من مظاهر السلوك ، وكظاهرة من ظواهر النشاط تخضع الى سنة التطور وعوامل الزمان والمكان فتتأثر بذلك على حسب المستوى الثقافي والحضاري للامة – وتتطور اما الى الحياة واما الى الممات ، واما الى ما بينهما – والبحث عن حياتها او موتها او فتورها كالبحث عن عوارض الكائنات كلها – يرجع الى الكشف عن مقوماتها ، وطوارئها ، ومدى استعدادها لما يطلب منها .

ثم ان عناصر حياة اللغة تتكون من عدة اصول :

1) الاشتقاق والقياس.
2) وقابلية التطور وصلاحية الاداء.
3) ومرونة الاسلوب وحلاوة المنطق.
4) ووفرة المادة ونماء الثروة.
5) وفصاحة اللفظ وبلاغة الكلام.

اما الاصل الاول فهو في اللغة العربية اجلى مظاهرها ، وسر من اسرار تفوقها وبه كانت احق واجدر بالحياة والبقاء فباب الاشتقاق والقياس واسع في هذه اللغة لا يضيق مهما اتسع مجال العقل وخياله ومثال لذلك المصدر والصفة فلهما في اللغة العربية العدد العديد من الصيغ والابنية واذا لاحظنا ذلك في

الافعال ومزيداتها تصاعدت الصور القياسية الى حد لا نظير له في اللغات الاخرى فالقياس والاشتقاق يجعلان اللغة العربية غنية ثرية ، ويفتحان الباب على مصراعيه امام الكتاب والشعراء لتسجيل افكارهم وابراز مواهبهم واذا تجلت قيمة هذا الاصل الى هذا الحد لم يبق شك في فضل براعتها ونمو حركتها، واما الاصل الثاني وهو قبول اللغة للتطور وصلاحيتها للاداء فهو في اللغة العربية بمكان لا يستطيع انكاره .

كانت تستعمل في اغراض بسيطة مثل التخاطب والعواطف ، والشارات والمواقف وشبه ذلك مما يتناسب وحياة البداوة وقامت بما طلب منها في هذا الشان خير قيام وبعد ما خفقت راية الاسلام وثبتت حجته اصبحت اللغة لغة دين وحكم وقصص وسياسة واساليب واحتجاجات فوسعت لغة العرب كل ذلك ولم تضق به ذرعا كما قال شاعر النيل حافظ ابراهيم رحمه الله في تمجيدها على لسان حالها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن ءاي به وعظات
فكيف اضيق اليوم عن وصف ءالة
وتنسيق اسماء لمخترعات
انا البحر في احشائه الدر كامن
فهل سالوا الغواص عن صدفاتي

ثم استعملت في اغراض جديدة اقتضاها الانغماس في الترف والامعان في الحضارة كوصف القصور وما بها من الاثاث والرياش والعمران، وكنعت البساتين وما بها من الاشجار والازهار والالوان الى غير ذلك مما يلائم انظمة الملك واساليب الحضارة التي استدعاها التقدم الفكري والاجتماعي ، ثم كانت لغة علم وادب وتاليف وترجمة فلم يضق صدرها ولم يقصر لسانها عما طلب منها في مصطلحات الطب والصيدلة ، والحكمة والفلسفة ، والفلك والهيئة ، والعلوم الطبيعية والرياضية ، واما الثالث وهو مرونة الاسلوب اي قبولها للابتكار والتجديد في صوغ المعاني وتقلبات اوضاعها فلها فيه الحظ الاوفر والمقام الاول اذ كانت اللغة في عهدها الاول عادية وبسيطة كبساطة معانيها لا تكاد تخرج عن الحقيقة فيرسل المتكلم كلامه على حسب مقتضى الحال بدون تكلف ولا تعمل لا في الفاظها ولا في معانيها فاذا هي في صدر الاسلام وما بعده من العصور تتراءى في لباس انيق وفي صور زاهية تترقى في البلاغة وتتنوع في المجاز والتشبيه مما زادها حلاوة في النفس ولذاذة في الطبع – وذلك شيء ظاهر في اساليب الخطباء والشعراء والكتاب الاسلاميين الذين انفسح المجال امامهم ، بما هيأته لغة التنزيل من ءافاق جديدة في اللغة وفي المعرفة – ولا يغيب عن الاذهان ان للقرءان العظيم اثرا قويا وتيارا سريعا في نشر اللغة العربية ورفع مقامها وتوفية كلماتها اذ جاء بما لا عهد للعرب به من كلمات كالساعة والسكينة مثلا فان العرب كانت لا تعرف من الساعة سوى الحصة من الزمان ولا تعرف الساعة بمعنى القيامة كما انها لا تعرف السكينة بمعنى الوقار والطمانينة ، ويقول ابن فارس في فقه اللغة ان العرب « كانت في جاهليتها على ارث من ارث ءابائهم في لغاتهم وءادابهم ونسائكم وقرابينهم فلما جاء الله تعالى بالاسلام حالت احوال ونسخت ديانات ، وابطلت امور ونقلت الفاظ من مواضع الى مواضع اخرى بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فكان مما جاء في الاسلام ذكر المومن والمسلم والكافر والمنافق ، والعرب انما عرفت المومن من الايمان والايمان هو التصديق ثم زادت الشريعة شرائط واوصافا بهما سمي المومن بالاطلاق مومنا وكذلك الاسلام والمسلم انما عرفت منه اسلام الشيء ثم جاء في الشرع من اوصافه ما جاء وكذلك كانت لا تعرف من الكفر الا الغطاء والستر . فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم ابطنوا خلاف ما اظهروا وكان الاصل من نافقاء اليربوع – ولم يعرفوا في الفسق الا قولهم فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها وجاء الشرع بان الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله – وكذلك الصيام اصله عندهم الامساك ثم زادت الشريعة النية وحظرت الاكل والمباشرة وغيرهما من شرائع الصوم وكذلك الحج لم يكن فيه عندهم الا القصد ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره وكذلك الحج لم يكن فيه عندهم الا القصد ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها الا من ناحية النماء وزاد الشرع فيها ما زاده وعلى هذا سائر ابواب الفقه فالوجه في هذا اذا سئل الانسان عنه ان يقول فيه اسمان لغوي وشرعي ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء الاسلام به وكذلك سائر العلوم كالنحو

والعروض والشعر كل ذلك له اسمان لغوي وصناعي» وقد اصبح كل هذا بحكم القرءان من الالفاظ المستحدثة في العربية بالاضافة الى ما كان جاريا عندهم ودارجا بينهم ويرجع الفضل الى القرءان الكريم في ارشاد اهلها الى العناية بها لما حازته من اسباب القوة ، والرقي ، والحيوية ، قال تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم »، « انا انزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون » ، « وكذلك انزلناه حكما عربيا » ، بل هو اعظم ضمان لصيانتها من الضياع وحمايتها من الفساد فهو ديوانها الجامع ودستورها المانع ، ولذلك نعتقد ان الحق والصواب مع من حث ويحث على حفظ القرءان الكريم صونا لآدابها وعونا عليها لطلابها وقديما قالوا القرءان قاموس من لا قاموس له وسند من لا سند له .

ومن هنا كان لقوة الدولة العربية الاسلامية التي ركزت حياتها على كتاب الله عز وجل اثر كبير في صقل اللغة واستثمارها والتوسع في دلالتها واساليبها لاسيما اذا كثرت الحاجات والمحسوسات وتجددت الوسائل والادوات فان ذلك يساعد على ترقيتها وتوسيع كلماتها ، وما زال الكتاب العصريون يطالعوننا كل حين بأسلوب جديد وابتكار فريد وذلك ما يشهد على قدرة اللغة ومرونتها واستعدادها.

واما الرابع وهو وفرة المادة فهو شيء لا تلام عليه اللغة العربية بل وربما شكا اهلها من كثرة مفرداتها وصعوبة الاحاطة بها وهذه معاجمها تهديك الى الحق في هذا الباب فلسان العرب لابن منظور الافريقي ينطوي وحده على ما يقارب ستين الف مادة واذا اعتبرت ان كل مادة يدخلها الاشتقاق وما يتفرع عليه ادركت ان جملة مفردات اللغة لا تكاد تدخل تحت الاحصاء وبذلك استطاعت لغة العرب ان تقوم بنفسها وتستقل عن غيرها مما حسدتها عليه كثير من اللغات الناهضة ــ ولا عار في وجود الدخيل من اللغات الاعجمية فان ذلك لا ينقصها شيئا من استقلالها لان مقومات اللغة المكونة لجهازها تامة وقائمة ــ ولان اللغات ياخذ بعضها من بعض كما ياخذ الانسان من الانسان وهذا شان الكائنات يرتفق بعضها ببعض ، الا ان نسبة الاخذ قد ترتفع وقد تنخفض ــ ولان الكلمات الدخيلة اقلية ولا اعتبار للاقلية مع الاكثرية ــ ولان هذه الالفاظ اصبحت عربية حيث تكلمت بها العرب وحولتها عن اصلها واخضعتها لنفوذ حكمها الا ترى انها لا تدعه على لفظه الذي كان عليه عند العجم الا اذا كانت حروفه في المخارج والصفات كحروف العرب .

وذلك مثل تنور وصابون فانه اتفقت فيهما اللغة العربية واللغة العجمية وعند ذلك يكون منسوبا الى العرب لا الى العجم اما اذا لم تكن حروفه كحروف العرب او كان بعضها كذلك دون بعض فلابد لها ان تردها الى حروفها ولا تقبلها على مطابقة حروف العجم ــ ومن اوزان الكلم ما تتركه على حاله في كلام العجم ، ومنها ما تتصرف فيه كما تتصرف في كلامها واذا فعلت ذلك صارت تلك الكلم مضمومة الى كلامها كالالفاظ المرتجلة والاوزان المبتداة بها .

ومما يضمن سعة اللغة العربية كثرة المترادفات وهو ما يعين الكاتب المولع بالبديع على شجعه وجناسه وفواصله ، والشاعر المرتبط بميزانه وقافيته وموازنته فوجود المترادفات في اللغة العربية يتوافق مع طبيعتها في السحر والابداع .

وهاهي كتب فقه اللغة تكفلت بضبط مسميات الالفاظ ومواقع استعمالها وما بين معانيها من الفروق وان قلت ودقت فاذا احكم الكاتب او الشاعر استعمالها كان مصورا للمقاصد والمطالب بكل دقة وبكل وضوح .

واما الاصل الخامس وهو فصاحة اللفظ وبلاغة التركيب فقد بلغت فيه العربية المقام الامثل وقد تجمعت هذه الصفات في مضر ، وانحصرت في قريش ، وتلخصت في النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم كما روى عنه انه قال : « انا افصح من نطق بالضاد بيد اني من قريش ونشأت في بني سعد » . ومن بلاغته صلى الله عليه وسلم انه تكلم بما لم يسمع من العرب قبله كقوله « مات حتف انفه » ــ « وحمي الوطيس » ــ «ولا يلدغ المومن من جحر مرتين» ــ الى غير ذلك مما سجله الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين ».

فهذه هي اصول حياة اللغة وبقائها ولا نشك في توفر لغة الاعراب والبيان على هذه العناصر وانها لم تزل كما كانت لغة العلم والثقافة ، لا تتاخر عن مسايرة ركب الحضارة بشرط ان يعمل اهلها على

ضمان وجودها في حياتهم ، ونفوذها في عالمهم ، وكم يلذ لي ان « اورد قصة طريفة اوردها ابن الاثير في المثل السائر قال : « وحضر عندي في بعض الايام رجل من اليهود وكنت في الديار المصرية ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه في دينهم وفي غيره وكان كذلك فجرى ذكر اللغات وان اللغة العربية هي سيدة اللغات وانها اشرفهن مكانا واحسنهن وضعا فقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت ءاخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها واخذت الحسن ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة فاختصر ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني – كوميل – مما لا على وزن فوعيل فجاء واضع العربية وحذف منها الثقيل المستبشع وقال جمل فصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا ..»

الا ان نفسي حدثتني ان هذا الكلام اساء الى العربية اكثر مما أحسن اليها لان اليهود لا يمكنهم ان يتجردوا عن سمومهم واحقادهم في كل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة وقد اكد الله لنا ذلك في كتابه الحكيم « لتجدن اشد الناس عداوة للذين ءامنوا اليهود والذين اشركوا » وهذه الاساءة تتجلى في ثلاثة مواضيع – الاول قوله : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت ءاخرا » والثاني قوله : « ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة » والثالث قوله: « فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني – كوميل – الخ ووجه ذلك انه يشير الى انها تولدت عن غيرها وانها ماخوذة من اللغات العبرية على الخصوص مع أن اللغة العربية عند المحققين هي شقيقة اللغات السامية وليست متولدة عن شيء منها لا كما يزعم بعضهم انها بنت اللغة العبرية والبينة على انها اصل بنفسها – انها اقرب اللغات السامية شبها باصلها حسبما اثبته الباحثون في نشأة اللغة الاولى وما تفرع عنها من لغات – وانها عاشت في نواحي منعزلة عن بقية اللغات السامية وبذلك يعسر اتصالها بها بصلة الاشتقاق والتفريع .

فاللغة العربية في غنى عن شهادة اليهود – اذ هي اوضح وسيلة للتعبير عن الاغراض واقدر على تصوير الحقائق وتحليل الغوامض ، واوسع من ان تضيق عن موضوع او محسوس – وهي لغة التنزيل الذي يعتبر حدثا عظيما في تاريخ اللغة العربية لانه نموذج جديد تطورت العربية فيه فكانت خليقة ان تكون معربة عن دين جديد هو في الحقيقة حضارة جديدة ومن الطبيعي ان تتطلب هذه الحضارة الطريفة مادة لغوية جديدة تسمى اللغة الاسلامية او الالفاظ الاسلامية – ومن اجل ذلك وجد الباحثون انفسهم في حاجة الى وضع مؤلفات تشرح هذه اللغة الجديدة فكانت هي الكتب التي تحمل عنوان مجاز القرءان ، او غريب القرءان ، او مشكل القرءان ، او تشبيهات القرءان ، او معاني القرءان ، فمثلا الفاظ الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والفرض والسنة والصدقة والنافلة والحديث وغير ذلك مما يدخل في نطاق اللغة الجديدة – دلت على معان جديدة في هذه الفترة التاريخية من تاريخ اللغة العربية .

ولغة القرءان والحديث طبعت اللغة العربية بطابع واضح مبين هو التزامها الاعراب الذي لم يكن شائعا ولا مستعملا على نحو ما التزمته نصوص القرءان ومعنى ذلك ان العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن تتقيد بضوابط الاعراب ولكن لغة التنزيل هي التي جعلت الاعراب سمة لازمة للعربية التي اريد لها ان تكون كذلك – وعلى هذا فلم يخل عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواجية في اللغة – لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، ولغة عامية تستعمل في التخاطب والتفاهم ، وربما تعدى الامر فيها مسالة الاعراب الى الالفاظ نفسها حيث تكون بعيدة عن الالفاظ الصحيحة – وعذر العرب انهم كانوا يتاخمون اقواما في اطراف الجزيرة العربية فاعداهم ذلك وغير لسانهم وحرف كلامهم – واعتبارا لذلك يمكن ان تكون صيغ الجموع وغيرها راجعة الى اختلاف اللهجات الخاصة اذا كانت قريبة من اللغة الاصلية .

وعلى اي حال فاللهجات العديدة ، والاستعمالات الجديدة التي لا يعترف بها علماء العربية ما هي الا نتيجة للتطور الطبيعي في اللغة واستمرار لحياتها من حيث انها فرضت نفسها فرضا وجمعت حولها جموعا من الناس .

ومن الاستعمالات الجديدة ما روي ان احد الظرفاء جاء الى ابي تمام الشاعر المشهور وساله ان يعطيه قارورة من ماء الملام حيث انكروا عليه قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني
صب قد استعذبت ماء بكائي

فقال له ابو تمام لا اعطيك ما سالت حتى تأتيني بريشة من جناح الذل وهو يشير في جوابه اللطيف الى قوله تعالى في الوصية بالوالدين : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وهو يريد ان يقول ان لاستعمالات المجاز في العربية الوانا من الابداع والابتكار فكما ان لغة التنزيل ابتكرت المجازات الدقيقة اللطيفة ، فصارت من انفس نفائس العربية ، كذلك يكون من حق الشاعر المبدع ان يبتكر في استعمال المجاز .

ولا ننسى ان المجاز قام بدور كبير في تطور اللغة وفي مسالة الدلالة ، والمجاز واقع في كل زمان، وقائم بكل لسان، والكلمة خاضعة للتغير بحكم الطبيعة، وبحكم الشريعة .

وبعد فقد علمنا ــ ان انتشار الاسلام كان من اقوى العوامل في انتشار اللغة العربية اذ هي لسانه وادائه ــ ومن عادة الناس انهم يتسارعون الى تعلم لغة الغالب لكي يضمنوا لانفسهم تقربا من الدولة الغالبة فيتسنمون المراكز ، ويترسمون المناصب وذلك شأن المغلوب مع الغالب فلغة الفاتح تنتصر عندما ينتصر وتستقر عندما يستقر واعان على ذلك هنا ما في تعاليم الاسلام من التسامح واقامة ميزان الحق والعدل ، فاقبل الناس على الاسلام وعلى لغته وسار الاسلام وسارت اللغة معه قدما بقدم ــ وقد اثر القرءان الكريم تاثيرا عظيما في اللغة والبلاغة، وكان باعثا قويا على تدوين اصولها وقواعدها ، وسائر علومها .

ومن الكتب التي عنيت بدراسة لغة القرءان واساليبه كتاب «مجاز القرءان» لابي عبيدة معمر ابن المثنى اللغوي المتوفى سنة 208 هـ وقد كان السبب في تاليفه هو التشبيه القائم في قول امريء القيس

ايقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كانياب الغوال

هل المشبه به معلوم او مجهول ــ وهذا الكتاب يفسر ما في الآيات الكريمة من مواد غريبة ، ويبين وجوه نظم القرءان التي يوجد مثلها في كلام العرب، ويتضمن كثيرا من مسائل البلاغة كالتشبيه والاستعارة والكناية ، والتقديم والتاخير والايجاز والالتفات ، ورتبه صاحبه على حسب ترتيب سور القرءان وءاياته ليسهل تناوله ويعم نفعه ان شاء الله ــ وكتاب «غريب القرءان» او«مشكل القرءان» لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة 213 هـ ورتبه كترتيب ابي عبيدة ، واعتمد فيه على كتاب ابي عبيدة وعلى غيره ممن سلك هذا المسلك والمراد انه اخذ من ذلك اخذ الناقد البصير الذي يعرف ما ياخذ وما يذر ولذلك تراه مرة ينقد نقدا لاذعا واخرى نقدا هادئا ــ وكتاب «تلخيص البيان، في مجازات القرءان » ، لابي الحسن محمد بن ابي الحسن المعروف بالشريف الرضي ، المتوفى سنة 406 هـ بين فيه ما في القرءان من استعمالات مجازية ونهج منهج ابي عبيدة في الوضع والتقرير ــ وكتاب ابي القاسم عبد الله بن ناقيا البغدادي المتوفى 485 هـ الذي حلق في اجواء الفضاء ، واضفى على التشبيهات القرءانية انوارا جديدة وقدم معلومات وافادات طريفة فحق له ان يكون مرجعا في الدراسات القرءانية والبحوث البلاغية والاسرار اللغوية ــ وكتاب « الايجاز في انواع المجاز لابي محمد سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعي المتوفى سنة 660 هـ بداه بمعلومات قيمة عن المجاز والبلاغة ورتبه على سور القرءان الكريم وختمه بطرائف وفرائد .